بسم الله الرحمن الرحيم

غزوة الأحزاب

لفضيلة الشيخ الدكتور

سالم أحمد سلامة

رئيس رابطة علماء فلسطين

الأُستاذ المشارك بكلية أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

غزوة الأحزاب

وقت الغزوة وسببها :

اختلف في وقت غزوة الأحزاب وتاريخها على قولين أحدهما قول ابن إسحاق أنها في سنة خمس .

عن محمد بن إسحاق قال : " كانت الخندق في شوال سنة خمس وفيها مات سعد بن معاذ ﷺ[1] . وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد " وكانت في سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين ، إذ لا خلاف أن أحداً كانت في شوال سنة ثلاث ، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهو سنة أربع ثم أخلفوه ، لأجل جدب تلك السنة ، فرجعوا ، فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه ، هذا قول أهل السير والمغازي ."[2] وقد ذهب إلى تأييد قول ابن اسحاق أهل التحقيق من العلماء بالإضافة إلى ابن القيم .[3]

وقال ابن كثير :" وقد كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة نص على ذلك ابن إسحاق وعروة ابن الزبير وقتادة والبيهقي وغير واحد من العلماء سلفاً وخلفاً ، وقد صرح الزهري بأن الخندق قد كانت بعد أحد بسنتين ، ولا خلاف أن أحداً في شوال سنة ثلاث."[4]

وأما القول الآخر : فهو ما ذهب إليه موسى بن عقبة في مغازيه ، وتابعه على ذلك مالك بن أنس ، ومال البخاري رحمه الله إلى ذلك وهو سنة أربع ، وقد رد ابن حجر في فتح الباري على القائلين بهذا القول ، وبين ضعفه ، وبأنه غير معتمد . ([5])

سببها : عندما بدأت الهزائم تحدق باليهود ، سيما بعد إجلاء بني النضير ، رأى هؤلاء أن يتحركوا بوجه السرعة لتوجيه ضربة قاصمة للدولة الإسلامية ، قبل أن يشتد ساعدها ويحدق خطرها بالوجود اليهودي في جزيرة العرب . وأدركوا أن استثارة قريش وحدها ضد المسلمين أمر غير مضمون العواقب ، وأن انفراد كل قوة وثنية في مهاجمة مواقع الدين الجديد سوف يمكن الإسلام من تصفيتها واحدة بعد الأخرى ، فلا بد إذاً من أن تتجمع القوى الوثنية كلها بزعامة قريش وتتحرك لاستئصال شأفة الإسلام ومن ورائها مكر اليهود وأموالهم . ([6]) والحال يتكرر

---

[1]- سيرة ابن هشام ٢١٤/٢ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٢/٦ " رواه الطبراني ورجاله ثقات ."

[2]- زاد المعاد ٢٦٩/٣ .

[3]- انظر طبقات ابن سعد ٦٥/٢ ، وكتاب الأموال لأبي عبيد ص ٢٣٥ ، ودلائل النبوة للبيهقي ٣٩٣/٣-٣٩٧ ، وفتح الباري لابن حجر في كتاب المغازي باب غزوة الخندق ٣٩٣/٧ .

[4]- سيرة ابن كثير ١٨٠/٣ ، وانظر الرد على القائلين بغير هذا .

[5]- فتح الباري ، كتاب المغازي باب غزوة الخندق . ٣٩٣/٧

[6]- دراسة في السيرة ، للدكتور عماد الدين خليل ص ٢٠٩ .

على مدى الأزمان ، فلا غرابة أن يجوب يهود ومن يأتمرون بأمرهم العالم كله يؤلبون على الإسلام والمسلمين ، حتى أصبح اسم الإسلام اليوم مرادفاً للعنف والإرهاب .

اليهود هم المؤلبون ضد الإسلام والمسلمين :

ذكر ابن إسحاق عن ثلة من علماء الصحابة والتابعين ، كلهم قد اجتمع حديثه في الحديث عن الخندق قالوا :" إنه كان الذين حزبوا الأحزاب نفراً من اليهود ، وكان منهم سلام بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ، فلما قدموا على قريش ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، فهم الذين أنزل الله فيهم " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ". ([7])

وجاءت هذه الدعوة في فترة كانت قريش تعاني فيها من حصار المسلمين الاقتصادي، وتزداد يقيناً بأن معركة أحد لم تفعل شيئاً ، فاستجابت للعرض اليهودي بينما انطلق النفر الخمسة إلى غطفان ودعوهم إلى حرب المسلمين لقاء إعطائهم تمر خيبر مدة سنة ، وأخبروهم بأنهم سيكونون معهم وأن قريشاً أعدت العدة لهذا الأمر ، وكذلك فعل اليهود مع عدد من القبائل اليهودية الأخرى . ([8]) وهذا هو السبيل الذي يسلكه يهود حتى هذه اللحظة لإدخال الدول العربية والإسلامية إلى حظيرة الاستعمار اليهودي الصليبي ، ألا تراهم يعرضون عليهم المساعدات المادية كي يقبلوا بتطبيع العلاقات مع دويلة المسخ في فلسطين .

حفر الخندق :

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه ، استشار الصحابة ، فأشار عليه سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة ، فأمر به رسول الله ﷺ ، فبادر إليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وعمل النبي ﷺ بنفسه فيه ، وبادروا هجوم الكفار عليهم ،

---

[7]- الآيات من سورة النساء آية رقم ٥١-٥٤ . والحديث في السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٤-٢١٥ ، بإسناده ، ورجاله ثقات وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ولكنه مرسل ، وقد وصله السيوطي من رواية ابن إسحاق عن ابن عباس رضى الله عنهما في لباب النقول لأسباب النزول ص ١٧ ، رواه الطبراني في الكبير ١١/٢٥١ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦/٧ وفيه يونس بن سليمان الجمال ، ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح .

[8]- انظر ابن هشام في السيرة ٢/٢١٥ ، والطبري في التاريخ٢/٥٦٥-٥٦٦ ، وابن سعد في الطبقات ٢/١/٤٧ ، والواقدي في مغازيه ٢/٤٤١-٤٤٣ ، والبلاذري في الأنساب ١/٣٤٣ ، واليعقوبي في تاريخه ٢/٤١ .

وكان في حفره من آيات نبوته ﷺ ، وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به ، وكان حفر الخندق أمام جبل سَلْعٍ ، وسلعٌ : جبل خلف ظهور المسلمين ، والخندق بينهم وبين الكفار .

وقد تم حفر الخندق من شمالي المدينة الشرقي إلى غربيها ، وكان حده الشرقي طرف حَرَّة واقِم ، وحده الغربي غربي وادي بُطحان ، حيث طرف الحرة الغربية (حَرَّة الوَبْرَة). وقد قسم الرسول ﷺ الخندق بين أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً ، وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع ، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة ، العرض من تسعة إلى ما فوقها . ([9])

أخرج البخاري رحمه الله عن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا ([10])

أخرج الإمام البخاري رحمه الله عن الْبَرَاء بْن عَازِبٍ يُحَدِّثُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعَرِ فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِنْ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قَالَ ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا . ([11])

معجزات الرسول ﷺ في هذه الغزوة :

١- إبصاره قصور الملوك وإعطاؤه مفاتيح ملكهم :

---

[9]- انظر الأساس في السنة وفقهها (السيرة النبوية) القسم الأول ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، الطبعة الثالثة ، ٦٦٦/٢ .

[10]- أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق حديث رقم ٤٠٩٩-٤١٠٠ ، والإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب وهو الخندق حديث رقم ١٨٠٥ ، والفتح الرباني ٧٧/٢١ .

[11]- أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الخندق حديث رقم ٤١٠٦ ، ٤١٠٠ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب رقم ١٨٠٣ ، والفتح الرباني ٧٧/٢١ .

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ قَالَ وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ قَالَ فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عَوْفٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ."([١٢])

وهذا يفيد أن النبي ﷺ كان يعاون أصحابه في حفر الخندق ، فيحدثنا أحد الصحابة الذين كانوا يعملون في الخندق رضى الله عنهم أجمعين ، فيقول : كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب ومرة يحمل التراب في المكتل ، وقد رأيته يوماً بلغ منه – أي الجهد – فجلس ﷺ ، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم فرأيت أبا بكر وعمر رضى الله عنهما واقفين على رأسه يبعدان الناس أن يمروا به فينبهوه." ([١٣]) وقد أدى هذا كله إلى جعل أصحابه يتفانون في العمل ، ولا يغادر أحدهم موقعه لقضاء حاجته إلا بعد استئذان الرسول ﷺ .

٢- تكثيره الطعام :

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال :" احتفر رسول الله ﷺ الخندق ، وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال :" هل دللتم على أحد يطعمنا أكلة " ؟ قال رجل : نعم ، قال : " أما لا ، فدلنا عليه " . فانطلقوا إلى رجل ، فإذا هو في الحندق يعالج نصيبه فيه ، فأرسلت إليه امرأته أن جئ ، فإن رسول الله ﷺ قد أتانا فجاء الرجل يسعى .

فقال : بأبي وأمي ، وله معزة وجديها فوثب إليها ، فقال النبي ﷺ :" الجدي من ورائنا " فذبح الجدي ، وعمدت امرأته إلى طحينة لها فعجنتها وخبزت . وأدركت وتردت ، فقربتها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فوضع النبي ﷺ أصبعه فيها فقال :" بسم الله ، اللهم بارك فيها ، اللهم

---

[١٢]- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٠٣/٤ ، والنسائي في كتاب الجهاد ٤٣/٦-٤٤ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٤١٧/٣-٤١٨ ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٩٧/٧ ، فقال :" ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن عن البراء فذكر الحديث . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٠/٦-١٣١ رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبدالله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات ."

[١٣]- الواقدي في مغازيه ٤٥٣/٢ .

بارك فيها ، اطعموا " فأكلوا منه حتى صدروا ، ولم يأكلوا إلا ثلثها وبقي ثلثاها ، فسرح أولئك العشرة الذين كانوا معه أن اذهبوا ، وسرحوا إلينا نغديكم ، فذهبوا وجاء أولئك العشرة مكانه ، فأكلوا منها حتى شبعوا ، ثم قام ودعا لربة البيت وسمت عليها وعلى أهلها ثم مشوا إلى الخندق فقالوا: اذهبوا بنا إلى سلمان ، وإذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقال النبي ﷺ لأصحابه :" دعوني فأكون أول من ضربها ، فقال : بسم الله " ، فضربها فوقعت فلقة ثلثها ، فقال : " الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة " ، ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة فقال :" الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة "، فقال عندها المنافقون :نحن نخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم ؟! ([14])

فبالإضافة إلى ما في هذا الحديث من المعجزات النبوية الشريفة ، إلا أننا نتعلم منه شيئاً آخر ، وهو أن القائد يجب أن يبحث عما يؤمِّن لجنده طعامهم وشرابهم ، وقديماً قالوا : إن الجيوش تزحف على بطونها .

وأخرج البخاري رحمه الله عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصًا شَدِيدًا فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصًا شَدِيدًا فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَنْ مَعَهُ فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ فَصَاحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيَّ هَلًا بِهَلّكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ بِكَ وَبِكَ فَقُلْتُ قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا وَهُمْ أَلْفٌ فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ ". ([15])

منزلة المشركين بالخندق:

[14]- قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٣١-١٣٢ " رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان ".

[15]- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب غزوة الخندق رقم الحديث ٤١٠٢ ، والإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الإشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ، حديث رقم ٢٠٣٩ ، والإمام أحمد في المسند ٣/٣٠ مختصراً ، والفتح الرباني ٢٢/٦٠ ، الحاكم في المستدرك ٣/٣٠-٣١ ، والدارمي في المقدمة باب ما أكرم به النبي في بركة طعامه ١/١٩-٢١ ، والطبراني في الأحاديث الطوال برقم ٥١ ، في ٢٥/٣٠٢ .

وروى الإمام البخارى رحمه الله عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ قَالَتْ كَانَ ذَاكَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ . ([١٦])

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : " وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (إذ جاءوكم من فوقكم) قال : عيينة بن حصن . (ومن أسفل منكم) : أبو سفيان بن حرب . وبين ابن إسحاق في المغازي صفة نزولهم قال : نزلت قريش بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة ، ونزل عيينة في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف ، والخندق بينه وبين القوم ، وجعل النساء والذراري في الآطام " ([١٧]) قال : وتوجه حيي بن أخطب إلى بني قريظة فلم يزل بهم حتى غدروا وبلغ المسلمين غدرهم فاشتد بهم البلاء . فاشتد بالمسلمين الحصار ، حتى تكلم معتب بن قشير وأوس بن قيظي وغيرهما من المنافقين بالنفاق وأنزل الله تعالى : (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) الآيات قال : وكان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة ومن أسفل منهم قريش وغطفان ، قال ابن إسحاق في روايته : ولم يقع بينهم حرب إلا مراماة بالنبل لكن كان عمرو بن عبد ود العامري اقتحم هو ونفر منه خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق حتى صاروا بالسبخة فبارزه علي فقتله ، وبرز نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي فبارزه الزبير فقتله ، ويقال قتله علي ، ورجعت بقية الخيول منهزمة . وروى البيهقي في " الدلائل " من طريق زيد بن أسلم " أن رجلا قال لحذيفة : أدركتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ندركه ، فقال : يا بن أخي ، والله لا تدري لو أدركته كيف تكون، لقد رأيتنا ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . من يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة ، فوالله ما قام أحد ، فقال لنا الثانية . جعله الله رفيقي ، فلم يقم أحد . فقال أبو بكر : ابعث حذيفة ، فقال : اذهب ، فقلت أخشى أن أؤسر ، قال : إنك لن تؤسر ، فذكر أنه انطلق ، وأنهم تجادلوا ، وبعث الله عليهم الريح فما تركت لهم بناء إلا هدمته ولا إناء إلا أكفأته " ومن طريق عمرو بن سريع بن حذيفة نحوه وفيه : " إن علقمة بن علاثة صار يقول : يا آل عامر ، إن الريح قاتلتي وتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم " وروى الحاكم من طريق عبد

---

[١٦]– أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب غزوة الخندق رقم ٤١٠٢ ، ونحوه في ٤١٠١ ، ومسلم في صحيحه كتاب الأشربه باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ، حديث رقم ٢٠٣٩ ، والفتح الرباني للساعاتي ٦٠/٢٢ والحاكم في مستدركه ٣٠/٣–٣١ ، والإمام أحمد في مسنده ٣٠/٣ مختصراً والدارمي في المقدمة باب ما أكرم به النبي ﷺ في بركة طعامه ١٩/١–٢١ ، والطبراني في الأحاديث الطوال رقم ٥١ ٣٠٢/٢٥ .

١٦[–] انظر فتح الباري ٤٠٠/٧ ، كما أن الحديث في السيرة لابن هشام ٣١٥/٢–٣١٦.

العزيز ابن أخي حذيفة عن أبي حذيفة قال : " لقد رأيتنا ليلة الأحزاب وأبو سفيان ومن معه من فوقنا ، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا أشد ظلمة ولا ريحا منها ، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون : إن بيوتنا عورة ، فمر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا جاث على ركبتي ولم يبق معه إلا ثلاثمائة فقال : اذهب فأتني بخبر القوم ، قال : فدعا لي فأذهب الله عني القر والفزع ، فدخلت عسكرهم فإذا الريح فيه لا تجاوزه شبراً ، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا : أخبر صاحبك أن الله عز وجل كفاه القوم " وأصل هذا الحديث عند مسلم باختصار . ([١٨])

شعار المسلمين يوم الخندق :

أخرج الإمام الترمذي رحمه الله عَنْ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ عَمَّنْ سَمِعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :" إِنْ بَيَّتَكُمْ الْعَدُوُّ فَقُولُوا حم لَا يُنْصَرُونَ ." قَالَ أَبُو عِيسَى وَفِي الْبَاب عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَهَكَذَا رَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ مِثْلَ رِوَايَةِ الثَّوْرِيِّ وَرُوِيَ عَنْهُ عَنْ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا."([١٩])

من مشاهد المعركة :

رجل المهمات الصعبة :

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:" كُنْتُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فِي النِّسَاءِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَى فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ قَالَ أَوَهَلْ رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ كَانَ

١٦- انظر فتح الباري ٤٠٠/٧ .

١٩- أخرجه الإمام الترمذي في كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في الشعار ، حديث رقم ١٦٨٢ ، ." وقَالَ أَبُو عِيسَى وَفِي الْبَاب عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَهَكَذَا رَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ مِثْلَ رِوَايَةِ الثَّوْرِيِّ وَرُوِيَ عَنْهُ عَنْ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا. وأبو داود في الجهاد باب في الرجل ينادي بالشعار وصححه الحاكم في المستدرك ١٠٧/٢ ، والإمام أحمد في المسند ٦٥/٤ ، ٢٨٩ ، ٣٧٧/٥ ، وقد وصله الحاكم في المستدرك من حديث البراء حيث قال في هذه الرواية : " صحيح الإسناد على شرط الشيخين إلا أنه فيه إرسال فإذا الرجل الذي لم يسمه المهلب بن أبي صفرة البراء بن عازب ". واد أخرجه الحاكم أيضاً في الصفحة نفسها عن البراء بن عازب بإسناد المهلب وصرح فيه باسم البراء .

رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ فَانْطَلَقْتُ فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَوَيْهِ فَقَالَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي."([20])

وأخرج أيضاً عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ". ([21])

إشغال المشركين المسلمين عن الصلاة :

لقد ضيق أهل الكفر حصارهم على رسول الله وأصحابه في المدينة المنورة يوم الخندق حتى شغلوهم عن الصلاة ، واستبسل الصحابة وأبدوا من ضروب الشجاعة الشيء الكثير أيضاً ، وقد ثبت عن أبي عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ أبي سعيد الخدري ﷺ قَالَ :" شَغَلَنَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْقِتَالِ مَا نَزَلَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلالاً فَأَقَامَ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ فَصَلاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا لِوَقْتِهَا ثُمَّ أَقَامَ لِلْعَصْرِ فَصَلاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا ثُمَّ أَذَّنَ لِلْمَغْرِبِ فَصَلاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا ". ([22])

وأخرج البخاري رحمه الله عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ :" مَلأَ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ". ([23])

وأخرج البخاري رحمه الله عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ

٩- أخرجه الإمام البخاري في مناقب الصحابة باب مناقب الزبير رقم : ٣٧٢٠ ، ومسلم في الفضائل باب فضائل طلحة والزبير حديث رقم ٢٤١٦ ، والإمام أحمد في المسند ١٦٤/١ ، ١٦٦ .

[21]- أخرجه الإمام البخاري في مناقب الصحابة باب مناقب الزبير رقم : ٣٧١٩ ، ومسلم في الفضائل باب فضائل طلحة والزبير حديث رقم ٢٤١٥ ، والترمذي في المناقب باب مناقب الزبير رقم ٣٧٤٥ ، وابن ماجه في المقدمة باب فضائل الزبير رقم ١٢٢ ، والحميدي رقم ١٢٣١ ، والإمام أحمد في المسند ٣٠٧/٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٨ ، ٣٦٥ .

[22]- أخرجه النسائي في كتاب الأذان باب الأذان للفائت من الصلوات : ١٧/٢ ، والإمام أحمد في المسند ٢٥/٣ ، ٤٩ ، ٦٧ ، والبيهقي فس السنن الكبرى ٤٠٢/١ ، والإمام الشافعي في الأم ٧٥/١ ، والدارمي في سننه ٣٥٨/١ . وصححه ابن حبان كما في موارد الظمآن ص ٢٨٥ ، وصححه غير ابن حبان وإسناده صحيح ، وقال ابن سيد الناس :" هذا إسناد صحيح جليل ". ورواه أبو داود الطيالسي رقم ٢٢٣١ ، وصححه ابن السكن كما قال ابن حجر في التخليص ص ٧٣ .

[23]- أخرجه البخاري في المغزي باب غزوة الخندق رقم ٤١١١ ، ومسلم في المساجد باب التغليظ في تفويت صلاة العصر رقم ٦٢٧، وأبو داود باب في وقت الصلاة حديث رقم : ٤٠٩ ، والنسائي كتاب الصلاة باب المحافظة على صلاة العصر ٢٣٦/١ ، وابن ماجه في الصلاة باب المحافظة على صلاة العصر حديث رقم ٦٨٤ ، والإمام أحمد في المسند ٧٩/١ ، ٨١ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٢ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ ". ([24])

وقد استدل طائفة من العلماء بهذه الروايات على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر كما هو منصوص عليه في هذه الأحاديث .

كما استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال ، كما هو ، وقد بوب البخاري ذلك . كما استدلوا بقوله ﷺ يوم أمرهم بالذهاب إلى قريظة :" لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة " ، وكان من الناس من صلى العصر في الطريق ومنهم من لم يصل إلا في بني قريظة بعد الغروب ولم يُعَنِّف واحداً من الفريقين . كما استدلوا بما ذكره الصحابة ومن معهم في حصار تُسْتَر سنة عشرين في زمن عمر حيث صلوا الصبح بعد طلوع الشمس لعذر القتال واقتراب فتح الحصن .

مفاوضة الرسول ﷺ زعيم غطفان لتخفيف الحصار :

عن أبي هريرة ﷺ قال :" جاء الحارث الغطفاني إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد شاطرنا تمر المدينة ، وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً ، فقال :" حتى أستأمر السعود " ، سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، يعني يشاورهما . فقالا : لا والله ، ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية ، فكيف وقد جاء الله بالإسلام ؟! فرجع إليه الحارث ، فأخبره ، فقال : غدرت يا محمد ! قال : فقال حسان :

يا حار من يغدر بذمة جاره ... منكم فإن محمداً لا يغدر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم ... واللؤم ينبت في أصول السخبر
وأمانة النهدي حيث لقيتها ... مثل الزجاجة صدعها لا يجبر[25]

قال : فقال الحارث : كفَّ عنا يا محمد لسان حسان فلو مزج به ماء البحر لمزجه."[26]

قلت : فانظر كم كان الرسول ﷺ حريصاً على المسلمين يريد أن يخفف عنهم ، ولو برد بعض الأعداء بشيء من المال أو الثمار ، وهذا يدل على أن القائد يجب أن يتحرك ليفتح لشعبه

---

[24]- أخرجه الإمام البخاري في المغازي باب غزوة الخندق رقم ٤١١٢ ، ومسلم في المساجد باب الدليل لمن قال إن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، حديث رقم ٦٣١ ، والترمذي في كتاب الصلاة باب في الرجل إذا فاته الصلوات بأيهن يبدأ رقم ١٨٠ ، وقد جاء شبيهاً بما سبق من حديث ابن مسعود ﷺ عند مسلم في كتاب المساجد باب التغليظ في تفويت صلاة العصر برقم ٦٢٨ ، والترمذي في كتاب الصلاة باب ما جاء في الرجل الذي تفوته الصلوات بأيهن يبدأ رقم ١٧٩ ، وابن ماجه في الصلاة باب المحافظة على صلاة العصر رقم ٦٨٦ ، والإمام أحمد في المسند ٤٠٤/١ ، ٤٥٦ .

[25]-كشف الأستار عن زوائد البزار ،كتاب الهجرة والمغازي ، باب غزوة الخندق ٣٣١/٢ ، رقم ١٨٠٣ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٢/٦ ، رواه البزار والطبراني ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات ، والسخبر : شجر تألفه الحيات فتسكن في أصوله .

[26]- المصدر السابق ٣٣١/٢ ، رقم ١٨٠٣ .

بعض المخارج التي تؤمن قوته ، كما تخفف عنه ضغط أعدائه ، حتى يصبر المسلمون لقتال عدوهم . وهكذا كان الأنصار عند حسن ظن النبي ﷺ ، فرضي لهم صمودهم وشجاعتهم.

كما أننا لا ننسى أن القائد وهو رسول الله ﷺ لم يبرم عقداً مع غطفان ولا غيرها من الأعداء الذين جاءوا ليجتثوا شأفته ، حتى راجع أهل الحل والعقد من الأنصار . أما اليوم فتعقد المعاهدات دون أن يدري بها أغلب الوزراء ولا أعضاء المجلس التشريعي .

قال الأستاذ سعيد حوى : " هذا الحديث يطرح ثلاثاً من أخطر القضايا التي تواجه الأمة الإسلامية دائماً :

القضية الأولى : قضية المصالحة على مال .

القضية الثانية : قضية الشورى .

القضية الثالثة : تفتيت الصف المعادي .

ثم قال الأستاذ سعيد حوى :" فلو أن كيان المسلمين في قطر أو في العالم تعرض لخطر الاستئصال ، أو أنَّ أمنهم أصبح في خطر ، فهل لهم في هذه الحالة أن يعطوا تنازلات مادية ، ولو بأن يدفعوا مالاً ؟ الظاهر من الحديث أن ذلك جائز ، ولكنه ليس مفروضاً . وقد نص فقهاء الحنفية على هذه المسألة ، فأجازوا دفع المال للعدو إذا أصبح يهدد الوجود الإسلامي .

والمسألة في عصرنا قد تأخذ طابعاً أكثر تعقيداً ، فقد تصبح في خطر خفي أو تتعرض لخطر حفي وجهة ما هي القادرة على الإنقاذ ، وهي لا تفعل إلا بشروط ، فإذا كانت الشروط مادية بحتة فللمسلمين ذلك ، ولم ألا يفعلوا والفتوى من أهلها . والشورى والمصلحة هي التي تحكم هذه الأمور ، وقد تشتبك المصالح وتتعارض مصالح الأمة والأفراد . والحاكم والمحكوم ، وكل ذلك ينبغي أن يخضع إلى موازنات عند أهل التقوى لتقرير ما هو المصلحة في النهاية ." [٢٧]

وقال الأستاذ سعيد حوى في القضية الثانية : بإلزامية الشورى لأن النبي ﷺ نزل على رأي السعدين وهما ممثلا الأنصار ، مع أنه كان مقتنعاً بوجهة النظر الأخرى – والله أعلم – وبعض الروايات تذكر أن هذا النزول كان بعد أن كتب رسول الله ﷺ العقد ولكنه لم يمضه . كما نزل على رأي الأغلبية في أحد مع علمه ﷺ أن رأيهم خطأ . ولكن الإلزامية تخضع لقواعد معروفة في كتب الفقه . مثل أن تعطى لأهلها وحينها رأي الأكثرية ملزم في نفي الضرر أو استجلاب المصلحة .

---

[٢٧]– الأساس في السنة وفقهها ٦٨٥/٢-٦٨٦ .

فإذا كانت المسألة في حدها الأدنى سنة ، ألا يحق للمسلمين أن يعتمدوها ؟ ألم يشترط العبد الصالح (الخضر) على موسى وهو– أي الخضر – دونه ؟ والتزم موسى ،ألا يكفي هذا للقول : بأن المسلمين إذا اشترطوا على أميرهم أن ينزل على شوراهم فلهم ذلك . أليس مصلحة المسلمين في عصرنا تستدعي ذلك ؟! ، على أنه لا مانع أن يفوض المسلمون من شاؤوا في أمر أو حكم فضلاً عن أن يفوضوا أميرهم ، وفي حادثة سعد في حكمه في بني قريظة مأنس لمن يرى ذلك . [٢٨]

وأما القضية الثالثة : فتعتمد على قوله ﷺ :" إي قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة " دليل لمن يقول : إن النبي ﷺ في عمله هذا كان يستهدف ألا يجتمع الأعداء عليه صفاً واحداً ، وموقفه ههنا دليل على أن هذا كان هدفاً له ، ونه نصل إلى عدد من الأمور :

١- أن تحاول الحركة الإسلامية التفتيش عن ثغرات القوى المعادية .
٢- أن محاولة التحالفات مع بعض الأطراف لا حرج منها ، فالهدف الاستراتيجي : حَيِّدْ من تستطيع تحييده ، اجعل في جانبك من تستطيع كسبه ، فتِّش عن المتعاطفين معك مهما كانت الأسباب ، واجعل ثقتك في هذا بالله أولاً وأحكم التوكل عليه ، ولا تنس الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام والمسلمين . [٢٩]

قتل علي بن أبي طالب عمرو بن عبد ود العامري :

أخرج الحاكم رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :" قتل رجل من المشركين يوم الخندق فطلبوا أن يواروه فأبى رسول الله ﷺ حتى أعطوه الدية ، وقتل من بني عامر بن لؤي بن عبد ود ، قتله علي بن أبي طالب مبارزة ". ([٣٠]) وعند ابن إسحاق تفصيل لقصة قتل علي رضي الله عنه لعمرو بن عبد ود العامري إلا إنها مرسلة .

سعد بن أبي وقاص يرمي رجلاً فيضحك النبي ﷺ :

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : " لما كان يوم الخندق ورجل يتترس جعل يقول بالترس هكذا ، فوضعه فوق أنفه ، ثم يقول هكذا يسفله ، بعد قال : فأهويت إلى كنانتي ، فأخرجت منها سهماً مدمى ، فوضعته في كبد القوس ، فلما قال هكذا تسفل الترس رميت ، فما

---

[٢٨]– انظر الأساس في السنة وفقهها ٦٨٦/٢ –٦٨٧ .

[٢٩]– انظر الأساس في السنة وفقهها ٦٨٧/٢ .

[٣٠]– أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٢/٣ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي وقد جاء أيضاً من حديث ابن شهاب الزهري وهو مرسل عند الحاكم ٣٢/٣ وقال إسناد هذا المغازي صحيح على شرط الشيخين ، قد أورد الآثار عن ابن إسحاق الحاكم ٢٤/٣–٣٤ ، فانظر هناك للاستزادة .

نسيت وقع القدح على كذا وكذا من الترس ، مال وسقط ، فقال برجله هكذا ، فضحك نبي الله ﷺ أحسبه قال حتى بدت نواجذه ، قال قالت : لم فعل ، قال كفعل الرجل ". ([٣١])

إصابة سعد بن معاذ ﷺ :

أخرج الإمام أحمد عن أم المؤمنين عَائِشَةَ قَالَتْ خَرَجْتُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَقْفُو آثَارَ النَّاسِ قَالَتْ فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الْأَرْضِ وَرَائِي يَعْنِي حِسَّ الْأَرْضِ قَالَتْ فَالْتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ قَالَتْ فَجَلَسْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ قَالَتْ وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ قَالَتْ فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ :

لبِّثَ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا جَمَلْ مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قَالَتْ : فَقُمْتُ فَاقْتَحَمْتُ حَدِيقَةً فَإِذَا فِيهَا نَفَرٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَإِذَا فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ سَبْغَةٌ لَهُ يَعْنِي مِغْفَرًا فَقَالَ عُمَرُ مَا جَاءَ بِكِ لَعَمْرِي وَاللَّهِ إِنَّكِ لَجَرِيئَةٌ وَمَا يُؤْمِنُكِ أَنْ يَكُونَ بَلَاءٌ أَوْ يَكُونَ تَحَوُّزٌ قَالَتْ فَمَا زَالَ يَلُومُنِي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنَّ الْأَرْضَ انْشَقَّتْ لِي سَاعَتَئِذٍ فَدَخَلْتُ فِيهَا قَالَتْ فَرَفَعَ الرَّجُلُ السَّبْغَةَ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ فَقَالَ يَا عُمَرُ وَيْحَكَ إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ مُنْذُ الْيَوْمَ وَأَيْنَ التَّحَوُّزُ أَوْ الْفِرَارُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَتْ وَيَرْمِي سَعْدًا رَجُلٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْعَرِقَةِ بِسَهْمٍ لَهُ فَقَالَ لَهُ خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعَرَقَةِ فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ فَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَعْدٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَةَ قَالَتْ وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَتْ فَرَقَى كَلْمُهُ وَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرِّيحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَكَفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوِيًّا عَزِيزًا فَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ بِتِهَامَةَ وَلَحِقَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ ." ([٣٢])

محاولة فاشلة عند حصون النساء :

ومن حديث رافع بن خديج ﷺ قال : " لم يكن حصن أحصن من حثن بني حارثة ، فجعل النبي ﷺ النساء والذراري فيه ، وقال : " إن ألم بكن أحد فألمعن بالسيف " ، فجائهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان أحد بني حشاش على فرس ، حتى كان في أصل الحصن ثم مجعل يقول للنساء : انزلن إلى خير لكن ، فحركن السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ ،

---

[٣١]– قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٣٥–١٣٦ ، " رواه أحمد والبزار إلا أنه قال كان رجل معه ترسان وكان سعد رامياً فكان يقول كذا وكذا بالترسين يغطي جبهته ، فنزع له سعد بسهم ، فلما رقع رأسه رماه ، فلم يخط هذه منه يعني جبهته . والباقي بنحوه ، ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة . وانظر كشف الأستار رقم ١٨٠٨ .

[٣٢]– أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/١٤١ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٣٦–١٣٨ :" رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث ، وبقية رجاله ثقات ، وقال الساعاتي في الفتح الرباني : ٢١/٨٢–٨٣ :" أورده الحافظ ابن كثير في تاريخه ثم قال : هذا الحديث إسناده جيد ، وله شواهد من وجوه كثيرة . سيرة ابن كثير ٣٨٢٣٨ .

فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني الحارثة يقال له ظهير بن رافع ، فقال : يا نجدان ابرز ، فبرز إليه ، فحمل على فرسه فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي ﷺ ." ([33])

وأخرج البخاري رحمه الله عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمْ الْأَحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ". ([34])

وأخرج البخاري رحمه الله عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ :" لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ". ([35])

تحسس أخبار المشركين :

أخرج الإمام مسلم عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ قَالَ اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ قُمْ يَا نَوْمَانُ". ([36])

---

[33]- رواه الطبراني في الكبير ٢٦٨/٤ ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٣/٦ : رواه الطبراني ورجاله ثقات . وأما رواية الحاكم في المستدرك ٥٠/٤ في جعل حسان بن ثابت مع النساء في الأطم فهو لم يصح رغم تصحيح الحاكم وتأييد الذهبي له ، إلا إن كان حسان مريضاً ، وكان يمرض هناك . أما أن تذكره رواية الحاكم وتصوره بالجبان ، فهذا لا يشهد له نقل ولا عقل ، وإلا كيف يهجو حسان فطاحل الشعراء ولا يهجوه أحد بالجبن وكفى بها منقصة . وحاشاه الله مما هو أقل من ذلك .

[34]- البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الخندق حديث رقم ٤١١٥ ، ومسلم في الجهاد والسير ، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو حديث رقم ١٧٤٢ ، والترمذي في كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في الدعاء عند القتال رقم ١٦٧٨ ، وأبو داود في الجهاد باب كراهية تمني لقاء العدو رقم ٢٦٣١ .

[35]- البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الخندق رقم ٤١١٤ ، ومسلم في الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل حديث رقم ٢٧٢٤ .

[36]- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب ، رقم الحديث ١٧٨٨ .

وأخرجه الإمام أحمد رحمه الله بتوسع أكثر ، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحِبْتُمُوهُ قَالَ نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي قَالَ فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ قَالَ وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا قَالَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ ... دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي فَقَالَ يَا حُذَيْفَةُ فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا قَالَ فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ وَلَا نَارٌ وَلَا بِنَاءٌ فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي فَقُلْتُ مَنْ أَنْتَ قَالَ أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ بَلَغَنَا مِنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي وَلَوْ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ قَالَ حُذَيْفَةُ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ وَانْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ ". ([37])

نصر الله رسوله بريح الصبا :

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ". ([38])

تحول ميزان القوة بعد معركة الأحزاب :

لقد أخبر النبي ﷺ صحابته الكرام أن عهد الدفاع أمام الغزو من الأعداء قد ولى ، وأما من الآن فصاعداً فالمسلمون هم الذين يبادرون بالغزو ، وهم الذين يذهبون إلى خارج أسوار المدينة المنورة ، دليل ذلك ما أخرجه البخاري رحمه الله عن سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ

[37]- أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٣٩٢-٣٩٣ ، ونحوه مختصراً عند الإمام مسلم كما في الحديث السابق رقم ١٧٨٨ ، والحاكم في المستدرك ٣/٣١ وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/١٥٩ ، ودلائل النبوة ٣/٤٤٩-٤٥٤ ، وابو نعيم في الدلائل ٢/٥٠٠-٥٠١ ، وقد جاء في المطالب العالية رقم ٤٣٢٩ ، ونسبه إلى أبي بكر بن أبي شيبة وحسن إسناده ، وقال الهيثمي في المجمع ٦/١٣٦ ورواه البزار ورجاله ثقات . وقال البوصيري : " رواه ابن أبي شيبة والبزار وأصله في الصحيح وفي هذا زيادة ظاهرة ." قلت : هناك اختلاف بين لفظ المسند والصحيح كما سبق ، ففي المسند زيادة ظاهرة ، إلا أن الصحيح هو المقدم . والله أعلم .

[38]- أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء باب قول النبي ﷺ نصرت بالصبا ، حديث رقم ١٠٣٥ ، والإمام مسلم في كتاب صلاة الاستسقاء باب في ريح الصبا والدبور ، حديث رقم ٩٠٠ ، وقد جاء من حديث أنس عند الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله ثقات كما قال الهيثمي ٦/٦٥ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الْأَحْزَابَ عَنْهُ الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ [٣٩]

كما ورد من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب وقد جمعوا له جموعاً كثيرة فقال رسول الله ﷺ :" لا يغزوكم بعدها أبداً ، ولكن نغزوهم ". [٤٠]

وفي هذه الغزوة من الفوائد بالإضافة إلى ما سبق ما يلي :

١- ظهور بعض المعجزات الخارقات على يد النبي ﷺ ، كما ظهرت جلياً كفاءة النبي ﷺ العالية في التصرف المحكم ، والتعامل المبرم مع صحابته الكرام .

٢- وفي قبوله ﷺ إشارة سلمان الفارس ﷺ بحفر الخندق ، دليل قيادة رسول الله ﷺ الحكيمة ، ودليل على مرونته . كما أنها دليل على أن الإسلام لا يضيق ذرعاً بالاستفادة مما عند الآخرين فيأخذ بأحسن ما عندهم مما يفيد الأمة وينفع المجتمع ولا يتعارض مع أحكام شريعتنا الغراء .

٣- إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائرلأن قتلى الفريقين يعدون على الأصابع ، بل معركة أعصاب ، ومثل أستاذنا الشيخ محمد الغزالى ذلك بمصير رجل يمشي على حافة قمة سامقة ، أو حبل ممدود ، فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه ، لهوى من مرتفعه إلى واد سحيق ... وبين الحين والحين يتطلع المدافعون : هل اقتحمت خطوطهم في ناحية ما من منطقة الدفاع ؟ وعرف المسلمون ما يتربص بهم وراء هذا الحصار ، فقرروا أن يرابطوا في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقترب ، ويتحملون لأواء هذه الحراسة الشديدة ليلاً ونهاراً .

٣٩- اخرجه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الخندق رقم ٤١١٠ ، ونحوه مختصراً في ٤١٠٩ ، والإمام أحمد في المسند ٢٦٢/٤.

٤٠- كشف الأستار حديث رقم ١٨١٠ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٩/٦ : رواه البزار ورجاله ثقات ، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٤٠٥/٧ " إسناده حسن ".